فن السيّرة والمغازي والفتوح

عبد الرحمن محمد كنجو
قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة إدلب

ملخص باللغة العربية:

علم التاريخ علم جديد بفكره وتقويمه الزمني، لم يُقلد العرب المسلمون غيرهم من الأمم في كتابة تاريخهم، والأسباب التي دفعت المسلمين إلى كتابة السيرة والمغازي والفتوح هي الحاجات التشريعية والإدارية، إلى جانب الرغبة العلمية للمسلمين في معرفة تاريخهم وتسجيله، يتضمن البحث الحديث عن فن السيرة والمغازي والفتوح موضحاً تعريف كل مصطلح وأهميته، وأبرز الرواد الذين بحثوا فيه، إلى جانب المنهج المتبع في كتابة كل من السيرة والمغازي والفتوح.

الكلمات المفتاحية (السيرة، المغازي، الفتوح)

ملخص اللغة الإنجليزية:

The Art of Sīra, Maghāzī, and Futūḥ

The science of history is a novel discipline in its thought and chronological framework. The Arab Muslims did not imitate other nations in writing their history. The reasons that prompted Muslims to write Sīra, Maghāzī, and Futūḥ were legislative and administrative needs, in addition to the Muslims' scholarly desire to know and record their history. This research examines the art of Sīra, Maghāzī, and Futūḥ, clarifying the definition of each term and its significance, the most prominent pioneers who investigated them, as well as the methodology followed in writing each of Sīra, Maghāzī, and Futūḥ.

Keywords: Sīra, Maghāzī, Futūḥ

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على صاحب السيرة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد إن خير الكتب كتاب الله، وخير السير، سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لم يكد يطلع القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، حتى كانت العلوم الإسلامية قد اقتربت من النضج، وشارفت الكمال، فقد وضعت الأسس الثابتة لمذاهب الفقه، وألّفت الكتب الصحاح في الحديث، وجمعت اللغة من أفواه الأعراب، وصنّفت في فنون الكتابة التاريخية كتب السيرة والمغازي والفتوح والطبقات والتراجم والبلدان والتواريخ العامة، وسيكون موضوع البحث فن السيرة والمغازي والفتوح، وقد أُختير هذا الموضوع نظراً لأهميته، حيث كان الاشتغال بالسيرة النبوية والحديث النبوي من أشرف الأمور التي يختارها العلماء لأنفسهم في مرحلة بدء نشاط الحركة العلمية والفكرية ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة للمسلمين، حيث يقول تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً][1].

لقد وضعت كتب كثيرة في السيرة والمغازي، ولكن اهتمام المؤرخين، انصب على أحداث السيرة نفسها، وقليلاً مَن اهتم بالمنهج الذي أُتبع في تدوينها، وقد أُعتمد في كتابة البحث على التحليل والتفسير المنطقي، وذلك للوصول قدر الإمكان للحقائق، وتم الاعتماد على كتب مؤرخي السيرة والمغازي والفتوح ولاسيما، ابن هشام، الواقدي، البلاذري، والكتب التي تبحث في منهجية وتطور التاريخ العربي ولاسيما، ليلى الصّباغ وشاكر مصطفى، وينقسم البحث إلى مقدمة، تتضمن التعريف بالبحث، ومتن وينقسم إلى ثلاث أقسام، أولها يبحث في أسباب الاهتمام بالتاريخ وثانيها يبحث في فن السيرة والمغازي، وثالثها يبحث في فن الفتوح، أمّا بالنسبة للصعوبات التي واجهت كتابة البحث، فقد تمثلت في قلّة المعلومات حول المنهج الذي أُتبع في تدوين السيرة والمغازي والفتوح مع كثرة الكتب التي تبحث في أحداث السيرة نفسها، وفي الختام، أتوجه بالشكر للأساتذة والزملاء والأصدقاء على المساعدات التي قدموها.

أولاً: أسباب الاهتمام بالتاريخ:

التاريخ هو معرفة ماضي البشرية منذ أصوله الأولى حتى الوقت الحاضر، أي بعث الماضي في حقيقته وأسبابه ومعناه، وقد عرفه الطبري بقوله «تاريخ الملوك الماضين وأزمان الرسل والأنبياء، ومقادير أعمارهم وأيام الخلفاء والسالفين وبعض سيرهم، ومبالغ ولاياتهم والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم».

إن كلمات «التاريخ» و«التأريخ» و«التوريخ» كلها ألفاظ ترادف بالعربية كلمة History بالإنكليزية، ولا يعرف بالضبط متى استخدمت هذه الكلمة بالعربية، حيث إنها لم ترد في الشعر الجاهلي، أو في القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، ويقال أنها قد تكون كلمة معربة عن الفارسية، ومن كلمتي «ماه روز» وماه تعني القمر وروز اليوم، ويقال أنها من اللغة العربية الجنوبية وتعني في أصالتها الأولى القمر أو الشهر، ومن هذا كان التاريخ هو التوقيت بالقمر [2].

إن التاريخ من أهم ميادين المعرفة التي اهتم بها العرب وتدارسوها وألفوا فيها، ويرجع اهتمامهم بها إلى ما قبل الإسلام، حيث عملوا على نقل تاريخهم من جيل إلى جيل، وذلك عن طريق الرواية الشفوية التيُ ضمنت في أشعارهم أو أخبارهم، أو عبر التدوين، والوسيلة الأولى اتبعها بخاصة البدو منهم، والثانية فقد اتبعها العرب المتحضرون في اليمن والشام [3].

(1)-القرآن الكريم: سورة الأحزاب، 21.

(2) -الصباغ، ليلى: دراسة في منهجية البحث التاريخي، منشورات جامعة حلب، ط10، 2003م، ص34 -35.

(3) -المرجع نفسه: ص36 -37.

وكان العرب قبل الإسلام يعتقدون بأهمية الدم في تقرير خلق الإنسان ويؤمنون بأن أعمال الآباء تسبغ على الأبناء مكانة في المجتمع، وهو ما دفعهم إلى الاهتمام بالنسب وحفظ شجراته وتدارسها، والاهتمام معها بالتاريخ [4].

كان ظهور الإسلام انعطافاً تاريخياً كبيراً في حياة العرب والبشرية، وانتقالاً حضارياً واجتماعياً له أثار خالدة في التاريخ، تتجلى في نهجه الأصيل الرامي إلى تنظيم حياة الإنسان وتحقيق الأمن والمساواة والعدل في المجتمع البشري، وُمؤلفة القلوب حول عقيدة التوحيد التي ترسم للحياة منهجاً جديداً مغايراً لما عرفه العرب [5].

ولم يدون العرب من تفاصيل هذا الحدث الكبير –ظهور الإسلام –سوى ركيزته الكبرى «القرآن الكريم» والرسائل التي بعث بها الرسول ρ إلى الملوك وشيوخ القبائل والاتفاقيات التي عقدها، حيث إنهم لم يدونوا تفاصيل أحداثهم لعدم حاجتهم إلى ذلك «لوجود الرسول بين ظهرانيهم أولاً، ولاستغراقهم في خضم الدعوة الإسلامية، والعمل لها ثانياً، ولأن القرآن الكريم هو تاريخهم الكبير ثالثاً».

واعتمد العرب على الرواية الشفوية في نقل أخبارهم لأكثر من نصف قرن، وعلى رواياتهم الشفوية المتواترة، واعتمد المتحدثون الأوائل، وكتاب السيرة.

ويمكن القول أنه في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي نشأ علم التاريخ العربي، معتمداً على الروايات الشفوية، وكان هذا العلم جديداً بفكره، وتقويمه الزمني وبأحداثه، ولم يقلّد العرب المسلمون غيرهم من الأمم في كتابة تاريخهم[6].

إن أسباب اهتمام العرب المسلمون بالتاريخ أكثر من أن تعد، ولكنها تراجع في معظمها إلى ما أحدثه ظهور الإسلام، وإلى القرآن الكريم، والقصص التي قدمها وهي:

1. ظهور الرسول ρ، كان خطاً فاصلاً غير مجرى التاريخ الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري، الأمر الذي دفع العرب المسلمين إلى تدوين تلك الحادثة.

2. إعطاء القرآن الكريم تصوراً تاريخياً واضحاً للكون منذ الخلق حتى يوم القيامة.

3. قدم القرآن الكريم مادة تاريخية مهمة تسمى القصص نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ][7] وعلى الرغم من أن الغرض والهدف منها هو الموعظة والاعتبار، إلا أن الرغبة في معرفة تفاصيل ما أجمله القرآن الكريم من ذلك القصص، فتحت باباً من أبواب المعرفة الدينية دخل منه التاريخ[8].

4. انتزاع الإسلام العرب من الإطار القبلي ومن الجو الوثني، وربطهم بسلسلة التاريخ الوجداني للبشرية، أي إنه أعطاهم بعداً زمنياً جديداً [9].

([4]) –روزنتال، فرانز: علم التأريخ عند المسلمين، تر: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد،1963م، ص أ.

([5]) –بوبو، مسعود: العربية وظهور الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، العدد 51 . 52، ص9 . 10 جامعة دمشق، 1995م، ص9.

([6]) –الصبّاغ: المرجع السابق ص39.

([7]) – القرآن الكريم: سورة يوسف: /3/.

([8]) –عباس، إحسان: فن السيرة، دار الثقافة ط5، بيروت، 1981م، ص12.

– لويس، برنارد؛ هولت: مؤرخوا العرب والإسلام، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق 2008م، ص69.

–مصطفى، شاكر: التاريخ والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1978م، ج1، ص58 –59.

([9]) –مصطفى: المرجع السابق ج1، ص60.

5. ظهور الدولة العربية الإسلامية التي غيّرت مسيرة العالم السياسية والتاريخية وفتوحاتها على كل الجهات، وسيطرتها السياسية وجديدها الحضاري، وهزيمتها لأكبر قوتين آنذاك «الفرس والروم» هذا الحدث يستحق التسجيل في دقائقه، لفهمه وإعطائه شأنه الإنساني.

6. وضع عمر بن الخطاب تقويماً ثابتاً، هو التاريخ الهجري، فأصبح عنصراً حيوياً في نشأة الفكرة التاريخية، ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيت الحوادث أو تأريخها العمود الفقري للدراسات التاريخية [10].

7. الاهتمام بالأنساب: إن الإسلام على الرغم من إلغائه للأنساب من حيث المبدأ إلا أنها عادت، فوجدت حوافز جديدة لظهورها عند تدوين الدواوين ومشكلة العطاء، وقد شجع الأمويون ابتداء من معاوية مثل هذه الدراسات ويروى أن الوليد الثاني أمر بعمل سجل وافٍ للأنساب.

8. تشجيع الخلفاء والحكام على الاهتمام بالتاريخ وتسجيله، يذكر أن معاوية بن أبي سفيان، استدعى عبيد بن شريه من صنعاء، ليسأله عن ملوك العرب والعجم، وأمر بتسجيل ما يقول [11].

9. ظهور الشعوبية: إن تميز العرب عرقياً وسياسياً وعسكرياً كان يمنحهم امتيازات ومصالح ومنافع مادية واقتصادية، وهذا ما دفع أبناء الشعوب الأخرى إلى تحطيم ذلك التميز للمشاركة في المكاسب المادية والعطاء، وكان همّ الشعوبيون تشويه التاريخ العربي وإبراز النقائص، الأمر الذي أدى إلى ظهور ردود الفعل لدى العرب وغيرهم لدراسة وتسجيل تاريخهم، كما فعل الجاحظ والمسعودي، وكسب التاريخ في الحالين ثروة تاريخية مهمة [12].

10. ساعدت بعض العلوم العربية في نشأة التاريخ، فدراسة الشعر العربي واللغة والأدب والنحو وأسرار البلاغة، كلها أدت بشكل أو آخر إلى حفظ الكثير من الأخبار والأحداث.

11. ظهور الورق: حيث إن ظهور الورق ساعد على نقل التدوين الفكري من الذاكرة إلى الشكل المكتوب وقد عرفه العرب في أوائل القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد.

12. الرغبة العلمية الخالصة عند العرب المسلمين لمعرفة التاريخ وتسجيله [13].

ثانياً: فن السيرة والمغازي:

أ. التعريف بالسيرة والمغازي:

لم يكن للعرب قبل مبعث النبي ρ من مادة التاريخ، إلا ما توارثوه بالرواية، مما كان شائعاً بينهم من أخبار الجاهلية الأولى، كحديثهم عن آبائهم وأجدادهم، وأنسابهم، ثم ظهر مورد جديد بظهور النبي ρ وظهور دعوته، ولم يدون العرب المسلمين في حقبة الرسول ρ والخلفاء الراشدين غير القرآن الكريم، وذلك لحرصهم على حفظه، وأيضاً قاموا بتدوين النحو، نتيجة اختلاط العرب بغيرهم بعد اتساع الدولة العربية الإسلامية.

([10]) -الدوري، عبد العزيز: علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960م، ص19.

([11]) -المرجع نفسه: ص39 -40.

([12]) -الدوري: المرجع السابق، ص43.

-مصطفى: ج1، ص68.

([13]) -مصطفى: المرجع السابق، ج1، ص61 -69.

ولقد منع المسلمون من تدوين أحاديث الرسول ρ إلى عهد عمر بن عبد العزيز وذلك مخافة اختلاط الحديث الشريف بالقرآن الكريم، فتوجه المسلمون إلى تدوين سيرة الرسول ρ.

ولكن ما هي السيرة؟ وما الفرق بينها وبين والمغازي؟ ومتى بدأ التأليف بها، ومن أول روادها؟

السيرة: هي السيرة النبوية، أي سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتتضمن: نسبه، ولادته، مبعثه، هجرته، حياته، وفاته.

أمّا المغازي: فهي غزوات وسرايا الرسول ρ في الجزيرة العربية والشام[14].

ولكن ما هي الأسباب التي دفعت المسلمين إلى تدوين السيرة النبوية، والمغازي؟

ب . أسباب تدوين السيرة والمغازي:

لقد دون المسلمون السيرة والمغازي لمجموعة من الأسباب هي:

1. رأى المسلمون أن تدوين سيرة الرسول ρ يحقق ما في أنفسهم من تعلّق به، وحب لتخليد أثاره، وخاصة بعد أن منعوا من تدوين الحديث الشريف[15].

2. الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول ρ، لا كقائد ديني فحسب، وإنما كثاني اثنين من مصادر التشريع الإسلامي الأساسية.

3. الحاجة إلى معرفة أسباب النزول، وتفسير آيات القرآن الكريم وأحكامه من خلال تاريخه باعتباره المصدر الأول للتشريع الإسلامي، وقد أدى البحث في ذلك إلى تسجيل الكثير من أخبار الجاهلية وعصر الرسالة [16].

4. الحاجة إلى أقوال وأفعال النبي ρ والاهتداء بها و الاعتماد عليها في التشريع والتنظيم الإداري، وفي شؤون الحياة، ضرورة مباشرة وطبيعية لدى أهل العلم.

5. إن مغازي الرسول وأصحابه كانت مصدرا اهتمام واعتزاز لدى المسلمين، وكانت مواضع محببة في مجالس السمر.

6. كان المشاركة في مغازي الرسول ρ عاملاً في رفع المنزلة الاجتماعية، وعنصراً في تحديد العطاء في الديوان مما قوى الاهتمام بها[17].

ج . روّاد فن السيرة والمغازي:

بدأت دراسة سيرة ومغازي الرسول ρ ضمن دراسة الحديث، ومع أن المحدثين استمروا على اهتمامهم بالمغازي، إلا أن بعضهم اهتم بدراسة حياة الرسول ρ بشكل يتعدى الاقتصار على نواحي التشريع، وأول من وضع في ذلك كتاباً عروة بن الزبير بن العوام ت: 94هـ/ 712م الذي كان فقيهاً ومحدثاً، ويعد أوّل من وضع كتاباً في المغازي، ثم تلاه أبان بن عثمان[18] ت: 105هـ/ 733م، والمغازي التي رواها المغيرة

(14) –المسعودي، علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ط1، بيروت، 1984م، ج2، ص274 –275.
–الدوري: المرجع السابق، ص20.

(15) –ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وآخرون، دار ابن كثير، ط1، دمشق، 1999م، ق1، ج1، ص4 – 5.

(16) –مصطفى: المرجع السابق، ج1، ص62.

(17) –الدوري: المرجع السابق، ص 19 –20.

(18) –هو أبان بن عثمان بن عفان (الخليفة الراشدي).

بن شعبة عن أبان ليست كتاباً، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنما هي مجموعة من الأخبار المتعلقة بسيرة النبي ρ ويظهر أنه لم يبق شيء من تلك المجموعة[19].

وهناك شرحبيل بن سعد ت: 123هـ/740م، ومحمد بن شهاب الزهري ت: 124هـ/ 741م الذي عمل على دراسة حياة الرسول ρ قبل البعثة وبعدها ومغازيه والخلفاء الراشدين، كان أحد الأئمة الأعلام، وعالم الحجاز والشام في الحديث وواضح من كثرة الأخبار التي رويت عنه في ابن إسحاق والواقدي أنه أجلّ علماء السيرة، ويمكن القول أن ما كتبه الزهري يعد الأساس في كتب السيرة والمغازي.

ومن الذين اهتموا بالسيرة والمغازي عاصم بن عمرو بن قتادة ت: 120هـ/737م وعبد الله بن أبي بكر بن حزم ت. 135هـ/752م وموسى بن عقبة ت: 141هـ/758م ومعمر بن راشد ت: 150هـ/767م [20].

واهتم وهب بن منبه ت: 110هـ/ 728م بالقصص والإسرائيليات وهي القصص والأساطير عن العهد القديم، وأراد بها توضيح بعض الإشارات القرآنية، ووضع كتاباً في المغازي، عثر على قطعة منه في ألمانيا [21].

ومن أعلام القرن الثاني للهجرة /الثامن للميلاد، محمد بن إسحاق 85 -151هـ / 704-768م، الذي أدّمج المغازي في سيرة الرسول ρ وقد خلف لنا أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكليتها، أمّا سبب تأليفه للسيرة، أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، طلب منه أن يكتب كتاباً في السيرة والتاريخ يتضمن أخبار العالم منذ خلق آدم عليه السلام إلى يومه ذاك، وذلك ليتعلم منه ابنه المهدي، فوضع ابن إسحاق كتاب «السيرة والمغازي»[22] وتنقسم السيرة إلى جملة من الكتب هي، المبتدأ، المبعث، المغازي.

أ . المبتدأ: كتاب يبحث في بداية الخليقة وآدم عليه السلام ولغاية الحقبة التي ولد فيها الرسول ρ وتنقسم إلى أربعة فصول:

يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة للإسلام، وثانيها تاريخ اليمن قبل الإسلام، وثالثها تاريخ القبائل العربية وعباداتها، ورابعها تاريخ مكة وأجداد الرسول ρ، وهنا لم يعتمد ابن إسحاق على الإسناد واعتمد في كتاباته على الأساطير والإسرائيليات.

ب . المبعث: وفيه ذكر ولادة الرسول محمد ρ والدعوة الإسلامية والهجرة إلى المدينة المنورة ثم مغازيه ووفاته، ويورد ابن إسحاق قوائم بأسماء المهاجرين إلى الحبشة وغيرها، ويتبع أسلوب الإسناد ويهتم بالترتيب الزمني للحوادث.

ج . المغازي: يتناول حياة النبي ρ في المدينة المنورة ويذكر الغزوات ويعتمد إيراد الأسانيد والترتيب الزمني[23].

ولابن إسحاق كتاب تاريخ الخلفاء، لم يصل منه إلا مقتطفات، وقد تناول فيه تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين [24].

ثم قيض الله لمجهود ابن إسحاق رجلاً له شأنه وهو عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري ت: 218هـ / 813م الذي أخذ يتعقب ابن إسحاق في الكثير مما أورده بالتحرير، والاختصار، والنقد، وذكر روايات لم ترد عند ابن إسحاق، واستبعد ابن هشام تاريخ الأنبياء من آدم

([19]) -الدوري: المرجع السابق، ص20 -21.

([20]) -هوروفتس، يوسف: المغازي الأولى ومؤلفوها، تر: حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط1، القاهرة، 1949م، ص3 - 5.
- ابن هشام: المصدر السابق، ق1، ج1، ص5 -6.
-الصباغ: المرجع السابق، ص43.

([21]) -الدوري: المرجع السابق، ص25. 26.

([22]) -أبو خليل، شوقي: ابن إسحاق، الموسوعة العربية، مؤسسة الصالحاني، ط1، دمشق، 2000م، م2، ص244 - 245.
-ابن إسحاق، محمد: سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تح: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 1976م، ص (يد).

([23]) -فرحان، حامد؛ الجميلي، جاسم: ابن الناس منهجه وموارده في كتابه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار النهضة، ط1، د -م، 2009 م، ص64 . 65
- ابن هشام: المصدر السابق، ق1، ج1، ص11.10.

([24]) -الدوري: المرجع السابق، ص30.

إلى إبراهيم، كما حذف بعض الشعر، وزاد فيها، وجمعها في كتاب أطلق عليه اسم «السيرة النبوية» وهي في الحقيقة تهذيب لسيرة ابن إسحاق [25].

وخضعت سيرة ابن هشام للشرح والتعليق من قبل عبد الرحمن السهيلي الذي وضع كتاب بعنوان «الروض الأُنُف» وأيضاً وضع أحمد العيني كتاب بعنوان «كشف اللثام» وشرح لها أيضاً أبي ذر الخُشني [26].

وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وضع محمد بن سعيد اليعمري المعروف بابن سيد الناس ت: 734هـ/ 333م كتاباً في السيرة والمغازي بعنوان: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» واتبع فيه الترتيب الزمني، وأورد فيه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بالموضوع وتفرد بأنه اهتم بشرح ما يرد في بعض الأخبار من ألفاظ غريبة، ووضع ذلك في آخر كل موضوع مستقل تحت عنوان «ذكر فوائد تتعلق بهذا الخبر» وقد يسميه عندما يكون بارزاً ومتميزاً [27].

د . المنهج الذي اتُبع في تدوين السيرة والمغازي:

إن المنهج الذي اتبعه المؤرخون في تدوين السيرة النبوية، هو نفس المنهج الذي أُتبع في تدوين الحديث (الجرح والتعديل) وذلك للتحقق من صحة الخبر، فكان المؤرخون الأوائل يقومون بالنقل عن فلان عن فلان من الحفّاظ الموثوق بهم، وهو ما يعرف «بالأسانيد» فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الحقيقة التاريخية والمؤرخ، ولم يقتصر المؤرخون على ذلك فقط، بل استمدوا أخبارهم من الصحائف التي وجدوها.

كما أنهم اعتمدوا على الترتيب الزمني للأحداث مستخدمين التقويم الهجري، واستشهدوا في إثبات صحة الأحداث بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وأوردوا الأشعار التي تتعلق بالأحداث.

وعملوا على زيارة المواقع التي وقعت فيها الأحداث، وعلى روايات من اشترك فيها أو شاهدها، كما أنهم أوردوا قوائم مختلفة تتعلق بالأسماء كقائمة بأسماء الذين هاجروا إلى الحبشة، وعمدوا إلى إيراد نصوص المعاهدات والعهود والمراسلات، وشرح الألفاظ الغريبة [28].

ولم تستأثر مدينة إسلامية واحدة بتخريج مؤرخين لسيرة الرسول ρ بل شاركت في ذلك معظم المدن، ولم يقتصر تدوين السيرة على القرنين الثاني والثالث الهجريين، وإنما تجاوز حدود الزمان والمكان إلى وقتنا الحاضر، ولقد تكونت مدارس للسيرة في معظم المدن الإسلامية وبخاصة مكة والمدينة والكوفة والبصرة وغيرهم.

هـ _ أهمية تدوين السيرة والمغازي:

1. تظهر أهمية تدوين السيرة باعتبارها جزء من السنة، فهي والحديث مصدران مهمان من مصادر التشريع الإسلامي، منهما تستنبط الأحكام لذلك لابد من جلائها في دقة بالغة، لكي تكون أعمال الرسول ρ إلى جانب أقواله مصدراً واضحاً لرجال الشريعة وأهل الإفتاء والقضاء.

2. تظهر أهميتها من كونها اعتمدت على التسلسل الزمني لتاريخ البشرية، فبدأت بنشأة الكون وخلق آدم عليه السلام إلى أن وصلت إلى حقبة الرسول ρ وما بعده.

([25]) -ابن هشام، المصدر السابق، ق1، ج1، ص11-12.
- فرحان؛ الجميلي: المرجع السابق، ص124.

([26]) -ابن هشام: المصدر السابق، ق1، ج1، ص12.

([27]) -ابن سيد الناس، محمد بن سيد اليعمري: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تح: محمد العيد الخطراوي؛ محي الدين مستو، مكتبة دار التراث، ط1، المدينة المنورة، 1992م، ج1، ص14.

([28]) -عبد الفتاح صفاء حافظ: البلاذري ومنهجه في كتاب فتوح البلدان، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، 1991م، ص48 -49.
-الدوري: المرجع السابق، ص18-19.

3. يعد تدوين السيرة النبوية ومغازي الرسول ρ نقطة بداية للتاريخ العربي الإسلامي، ولم يقلد المسلمون غيرهم من الأمم الأخرى في تدوين تاريخهم فكان تدوين السيرة والمغازي نتاج عربي إسلامي بحت.

4. تظهر أهمية السيرة من المنهج الذي اتبعته في التحري والإسناد واعتماد الترتيب الزمني للأحداث باستخدام التقويم الهجري.

5. اعتمدت على إثبات صحة الأحداث بذكر الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

ثالثاً: فن الفتوح:

1- التعريف بالفتوح:

بعد نجاح المسلمون في تأسيس دولتهم في الجزيرة العربية، خرجوا للجهاد، فهزوا عروش كسرى وقيصر، وقوّضوا دعائم الملك في العراق والشام وبلاد فارس ومصر والمغرب العربي، ودخلوا البلاد فاتحين، فظهر ما يعرف باسم الفتوح، وهي الفتوحات الإسلامية الكبرى [29].

نشأ التأريخ للفتوح في بداية الأمر ضمن التأريخ للسيرة، فكان المؤرخون، يؤرخون للمغازي النبوية ثم يتناولون الفتوحات الإسلامية، كجزء مكمل لها، ومع تقدم الدولة العربية الإسلامية واتساعها ظهرت دوافع لمعرفة تاريخ الفتوحات الإسلامية بصورة أوسع وأعمق، لحل كثير من القضايا التي بدت مثار خلاف، فبدأ الاهتمام بهذا الفرع من التاريخ الإسلامي يأخذ مجراه، فأفرد له المؤرخون كتب خاصة به، وأقبلوا على الكتابة فيه، والتخصص في موضوعاته، حتى أصبحت له مدرسته وأول من وضع فيه كتاباً بشكل فعلي، محمد بن عمر الواقدي، وبلغت هذه المدرسة مرحلة كبيرة من النضج، والاكتمال على يد أحمد بن يحي البلاذري في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد[30].

ولكن ما هي الأسباب التي أوجدت هذا النوع من الكتابة ودفعت المؤرخين إليه؟

ب . أسباب تدوين أخبار الفتوح:

إن الدوافع التي دفعت المؤرخين للاهتمام بتاريخ الفتوح تتمثل بـ:

1. إن تاريخ الفتوح يعد مادة من مواد التشريع، فموقف الخلفاء الراشدين من البلاد المفتوحة كان أساساً من الأسس التي بنى عليها الفقهاء أحكامهم في شؤون الجهاد، ومعاملة أهل الذمة، وفرض الخراج والعشر والجزية.

2. الحاجة إلى معرفة البلاد التي فتحت صلحاً، والتي فتحت عنوة، والتي فتحت بعهدٍ لما يترتب على ذلك من أحكام شرعية تطبق في التعامل مع أهل البلاد في مجال الشؤون المالية والإدارية [31].

3. أخذت القبائل التي استقرت في البلدان المفتوحة في الاهتمام بتدوين تاريخ الفتوحات الإسلامية، بهدف تسجيل انتصاراتها، حيث إن العرب في قتالهم أثناء الفتوح كانوا يقاتلون كقبائل، كل قبيلة لها مكانها في القتال، وكان ذلك باعثاً على حفظ أخبار الفتوحات بتسجيلها وتدوينها.

([29]) -الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، د . م،1967م، ج1، ص21.

([30]) -عبد الفتاح: المرجع السابق، ص45.

- الصباغ: المرجع السابق، ص52.

([31]) -عبد الفتاح: المرجع السابق، ص45-46.

-روزنثال: المرجع السابق، ص 223.

4. لم يسجل تاريخ الفتوح دور القبائل فحسب، ولكن سجل أيضاً الإقطاعات التي منحت لهذه القبائل وأماكنها في البلاد المفتوحة، ومقدار العطاء والأرزاق وغيره، مما تهتم الدولة بمعرفته وتسجيله في الدواوين ويهتم أصحابه أيضاً بتسجيله ليستمر الانتفاع به [32].

5. الحاجة إلى تدوين المعلومات الجغرافية وتاريخ البلاد المفتوحة، وذلك للانتفاع به [33].

6. الرغبة العلمية الخالصة عند المسلمين لمعرفة التاريخ وتسجيله [34].

ج - روّاد فن كتابة الفتوح:

في مطلع القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، بدأت معالم الكتابة في تاريخ الفتوح تنضج وتتبلور على يد طبقة من المؤرخين، أُطلق عليهم اسم (الإخباريون) الذين اتجهوا إلى جمع الروايات المتعددة حول موضوع معين أو حادثة معينة، وتطرقوا لموضوعات تاريخية غير السيرة والمغازي عرفت باسم الفتوح، ومن المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الفتوح أبو مخنف لوط بن يحي الأزدي ت: 157هـ/ 774م وكتابة «فتوح العراق وفتوح الشام».

وسيف بن عمر ت: 180هـ/ 796م وكتابه «الفتوح الكبير» ومحمد بن شهاب الزهري ت. 124هـ/ 741م، وكتابه «فتوح خالد بن الوليد» واسحق بن بشر ت: 206هـ/821م. وكتابه «فتوح بيت المقدس» [35].

وأبرز من كتب عن الفتوح في القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد محمد بن عمر الواقدي 130 -207هـ / 748-823م الذي وضع كتاب عن غزوات الرسولﷺ سمّاه «المغازي».

أمّا في الفتوح فله كتاب «فتوح الشام» و«فتوح العراق» وقد وصلنا معظم تصنيفاته عن طريق كاتبه محمد بن سعد صاحب كتاب «الطبقات الكبرى» الذي عرف باسم «كاتب الواقدي» [36].

ومن مؤرخي هذا القرن أيضاً، محمد بن عبد الله الأزدي وكتابه «فتوح الشام» وأبو معمر بن المثنى وكتابه «فتوح أرمينية» و«فتوح الأهواز» [37].

وأيضاً من المؤرخين الذين كتبوا في الفتوح علي بن محمد بن عبد الله المدائني 135 -225هـ / 752 -840 م، الذي كتب عن فتوح الشام، وفتوح العراق، وفتوح خراسان، ووضع عبد الرحمن بن عبد الحكيم كتاب في الفتوح سمّاه «فتوح مصر وأخبارها».

وقد بلغ علم الفتوح أوجه على يد أحمد بن يحي بن جابر البلاذري ت: 279هـ /892م، وهو من رجال البلاط العباسي منذ عهد المتوكل حتى المعتز، وضع البلاذري عدداً من الكتب منها كتاب «البلدان الصغير» وكتاب «البلدان الكبير» لكنه لم يكمله. إلا أن شهرته قامت على كتاب «فتوح البلدان» الذي يعد سجل شامل للفتوح الإسلامية. وقام البلاذري برحلة، زار فيها الحجاز وفارس والشام والجزيرة، ووقف على أحوال كثير من ثغورها وسكانها، وهذا ما ساعده على تأليف كتابه «فتوح البلدان» [38].

([32]) -عبد الفتاح: المرجع السابق، ص46.

([33]) -روزنثال: المرجع السابق، ص223.

([34]) -مصطفى: المرجع السابق، ج1، ص61.

([35]) -عبد الفتاح: المرجع السابق، ص52 . 53.

([36]) -ابن سعد، محمد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1960، م1، ص6.
-فرحان؛ الجميلي: المرجع السابق، ص71.

([37]) -عبد الفتاح: المرجع السابق، ص54.

([38]) -البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر: فتوح البلدان، تح: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م، ص7-9.

لم يتجه البلاذري نحو كتابة تاريخ عام كما فعل مؤرخون معاصرون له، كاليعقوبي وأبي حنيفة الدينوري والطبري، بل قصر اهتمامه على تتبع موضوع الفتوح [39].

تناول البلاذري في البداية فتوحات البلدان الغربية أي التي تقع غرب بغداد حاضرة الخلافة آنذاك، وتتبع فتوحاتها بلداً بلداً، مراعياً تتابع زمن الفتح، وتتابع الموقع الجغرافي، فبدأ بالحديث عن الفتوحات التي تمت في الجزيرة العربية ثم فتوح الشام وأرمينيا ومصر والمغرب والأندلس والجزر التي تقع في المتوسط كقبرص ورودس، ثم انتقل إلى أقاليم الشرق فبدأ بفتوح العراق ثم فارس ثم إقليم ما وراء النهر وإقليم السند [40].

د ـ المنهج الذي أتبع في كتابة الفتوح:

ابتعد كُتّاب الفتوح عن استخدام اللِحن، واعتمدوا في كتاباتهم على لغة عربيةٍ سلسةٍ، يسهل على القارئ فهمها، وعمدوا إلى تفسير معاني الكلمات والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأوردوا الأشعار، للتدليل على صحة الروايات والأحداث.

اهتموا بتسجيل نصوص كتب الصلح والاتفاقيات التي عقدها المسلمون مع أهل البلاد المفتوحة، وسجلوا أيضاً الرسائل المتبادلة بين الخلفاء والقواد.

استخدموا أسلوب تميز بالإيجاز والاختصار والتركيز وابتعدوا عن السرد وتكرار الحوادث، واعتمدوا على النقد، ولاسيما عند البلاذري، وأعلنوا رأيهم، فيقول البلاذري عن الخبر الذي لا يقبله «وليس ذلك بثبت» أو يقول «وهذا غلط» ويعلن عن الخبر الذي يؤكده بقوله «والثبت أن».

واستخدموا الترتيب الزمني في عرض الأحداث ووحدة الموضوع الذي يتحدثوا عنه [41].

وحرص كتاب الفتوح على وضع عناوين لموضوعات الكتاب، الأمر الذي يُسهّل على القارئ الوصول إلى ما يريد قراءته دون عناء، ففي الموضوعات الخاصة بالفتوح، يضع المؤرخ عنواناً للإقليم الذي يتحدث عنه، مثل «فتوح الشام» ثم يُفصّل في فتح بلدان الشام ويضع هذه الفتوح تحت عناوين فرعية مثل «فتح دمشق»، «فتح حلب».

وقاموا بزيارة البلدان المفتوحة ولذلك لسماع الأخبار من أهل البلاد نفسها [42].

هـ ـ أهمية تدوين الفتوح:

إن كتب الفتوح تختلف عن كتب التاريخ العام التي تؤرخ للخلفاء، فهي تختص بموضوع الفتوح، إن تاريخ الفتوح هو تاريخ لتفاعل الشعوب التي انصهرت في بوتقة الإسلام في ظل دولة مترامية الأطراف، وحركة هجرات، واختلاط بين أقوام، كما هي تاريخ لاقتصاد البلدان ونظامها الإداري وحروبها ومعاهداتها، وأحوال معاشها.

كما اهتم كتّاب الفتوح، ولاسيما البلاذري بتتبع شؤون الخراج، وهو موضوع يقع ضمن عناية الفقهاء وكتاب الدواوين. كما اهتموا بتصنيف الأراضي وجغرافية المناطق، إضافة إلى السياسة العمرانية من تحصين الثغور وإقطاع الأراضي وبناء المدن وشق القنوات واستصلاح الأراضي [43].

-عبد الفتاح: المرجع السابق، ص59.

([39]) -البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: البلدان وفتوحها وأحكامها، تح: نجيب الماجدي المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2008م، ص5 -6.

([40]) -البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان، تح: عبد الرؤوف سعد؛ عمرو أحمد عطوة، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د . ت، ص7.

-عبد الفتاح: المرجع السابق، ص68-69.

([41]) -البلاذري: المصدر السابق، ص 6-7.

([42]) -عبد الفتاح: المرجع السابق، ص69.

([43]) -البلاذري: المصدر السابق، ص 6 -7.

وتبرز أهمية كتب الفتوحات في إبراز المواقع الكبرى والفاصلة في تاريخ الفتوحات، فمثلاً عندما ذكر البلاذري معركة القادسية أعطى صورة متكاملة عن الموقعة، فذكر القادة، الحكام، تاريخ الموقعة، مكان المعسكرين، عدد الجيوش، المراسلات بين الجيشين، الدواب المستعملة، الأسلحة، وصف المعركة، البطولات الفردية، انتهاء الموقعة، الشهداء [44].

ولم يقتصر اهتمام المؤرخين على الفتوحات البرية، بل تعداها إلى الفتوحات البحرية، كفتح قبرص، وصقلية، ورودس، وأرواد.

وأيضاً، لم يقتصر اهتمامهم على الجانب السياسي، والفكري، فقد أدرك كتاب الفتوح الجانب الحضاري، فامتلأت الكتب بمعلومات فقهية وإدارية وجغرافية وعمرانية واجتماعية.

إن قيمة كتب الفتوحات لا تقتصر أهميتها على التأريخ للفتوحات الإسلامية أو إعطاء معلومات عن الحقبة التي سبقت هذه الفتوح فحسب، ولكن تعد مصدراً مهماً من مصادر التاريخ لهذه البلدان في مختلف النواحي والجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية [45].

الخاتمة:

من خلال ما تقدم يمكن القول، بأن ظهور الإسلام شكّل انعطافاً تاريخياً كبيراً في حياة العرب والبشرية، وأنه في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي نشأ علم التاريخ العربي، معتمداً على الروايات الشفوية، وكان هذا العلم جديداً بفكره وتقويمه الزمني، ولم يُقلد العرب المسلمون غيرهم من الأمم في كتابة تاريخهم، والأسباب التي دفعت المسلمين إلى كتابة السيرة والمغازي والفتوح هي الحاجات التشريعية والإدارية، إلى جانب الرغبة العلمية للمسلمين في معرفة تاريخهم وتسجيله.

وقد بدأت دراسة السيرة ضمن دراسة الحديث الشريف، والمنهج الذي اتبعه المؤرخون في تدوين السيرة النبوية، هو نفس المنهج الذي أُتبع في تدوين الحديث الشريف ولاسيما باستخدام الأسانيد، ولم يقتصر تدوين السيرة على القرنين الثاني والثالث الهجريين /الثامن والتاسع الميلاديين، وإنما تجاوز حدود الزمان والمكان إلى وقتنا الحاضر، وقد تكونت مدارس للسيرة في معظم المدن الإسلامية وبخاصة مكة والمدينة والكوفة والبصرة.

بينما نشأ فن الفتوح في البداية ضمن السيرة، لكن مع مطلع القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، بدأت معالم الكتابة في تاريخ الفتوح تنضج وتتبلور على يد طبقة من المؤرخين، ولم تقتصر كتب الفتوح على الشؤون السياسية والعسكرية، بل اهتمت بالأمور الفقهية والتشريعية والإدارية والجغرافية والعمرانية، فغدت كتب الفتوح موسوعة تاريخية حضارية للبلدان.

([44]) –عبد الفتاح: المرجع السابق، ص72 –76.

([45]) –عبد الفتاح: المرجع السابق، ص76.